إلى بناءٍ خلقيٍّ سليم

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٧/٣/٢٠٠٩م

إن الذي يرصد تطوّر مجتمعاتنا - وأعني بمجتمعاتنا المجتمعاتِ الإسلاميةَ خصوصًا وواقعَنا العربيّ بالأخصّ - يصل إلى نتيجة مفادُها أن المجتمع يسير إلى انحدارٍ خُلُقيّ، وأننا لا نتناسب في سلوكنا العام مع هويتنا الإسلامية، فهويتُنا الإسلامية: تقدّمٌ وحضارةٌ، وبناءٌ وازدهارٌ، وعِلمٌ وعمل، وأخلاقٌ نبيلة، وسموٌّ في المقاصد، وفضيلةٌ وعِفّة وشرف... لكننا نلاحظ غير ذلك على مستوى الواقع والاستقراء.

واليوم تتصاعد وتيرة الجرائم التي كانت غريبة عن نسيج مجتمعنا هذا، فبدأنا نلاحظ مظاهر القتل والسطو في وَضَح النهار، وبدأنا نلاحظ تفلُّتًا خُلُقيًّا على كلّ المستويات.

في مثل هذا الحال لابد من ورقة عمل، وإذا استسلم المُصلِحون والدُعاة إلى هذا الواقع، والتزموا مبدأ العُزلة والبُعد عن الإصلاح، فسوف ننحدر انحدارًا سريعًا إلى الهاوية، ومع الأسف نفقد الدين والدنيا.

ولئن كانت بعض الأمم قد مُنيت بالخسارة والهزيمة العسكرية كألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية، لكننا نرى أنهم وإن لم يتقدّموا على مستوى الأخلاق والمبادئ، لكنهم تقدّموا على مستوى المادة، وازدهرت بلادهم ازدهارًا مدنيًّا ماديًّا، لكننا بعد سقوط الخلافة واستعمارِ بلادنا وما مُنيت به أمتنا من الخسائر، لم ننهض في دينٍ ولا دنيا، وبقي واقعنا يزداد تقهقرًا.

ما الذي ينبغي أن نفعله، حكوماتٍ في مجتمعاتنا الإسلامية وشعوبًا، علماءَ وعمّالاً، مخططين ومنفّذين؟

١- علينا أن نخرج من خداع أنفسنا، لنكون في مستوى الشجاعة التي نعترف فيها أن واقعنا الخُلُقي يسير إلى انحدار:

لنكن على مستوى الشجاعة في وسائل أعلامنا، وفي منتدياتنا، وفي مجتمعاتنا وتجمّعاتنا...

لنكن صادقين مع أنفسنا، ولنخلع ثوب الخداع والمخادعة للنفس، ولنعترف أننا نسير إلى انحدار خُلُقيّ.

هذا الاعتراف قضية مبدئية، وإذا لم نصل إلى هذا الاعتراف لا يمكن أن نخطو خطوة واحدة نحو البناء الخُلُقي السليم.

وهل يمكن لمريضٍ أن يُشفى من مرضه إذا لم يعترف أنه مريض؟

وهل سيتناول جرعةً واحدة من العلاج إذا كان يُخادع نفسه يوهمها أنه سليم لا عِلة فيه؟

إذًا: أول خطوة ينبغي علينا جميعًا أن نعترف فيها بالواقع وأن نكون على مستوى الصدق والشجاعة هي أن نعترف أننا نسير إلى انحدار خُلُقيٍّ بَشِع.

٢- اليومَ بدأنا نرى ظهور ظاهرة التعليم الخاص: فأعداد الطلبة كبيرة ولا يمكن للتعليم الرسميّ أن يستوعب استيعابًا جادًّا وفاعلاً كلَّ الطلبة، وفُتح الباب أمام التعليم الخاصّ، وبدأت المدارس الخاصة والجامعات الخاصة تفتح أبوابها، وبدأنا نرى في ساحاتنا ما يُسمى بالتعليم الخاص.

لكن السؤال الذي ينبغي علينا أن نسأل أنفسنا فيه: هل يحمل اليوم أكثر أصحاب المشروعات في التعليم الخاص راية الرسالة، أم أنهم يتحركون في مشروعاتهم حركة رِبحية؟

لا يمكن بالمنطق العالميّ أن تتقدم جامعة متميزة أو مدرسة متميزة حتى تكونَ رسالتها رسالةً حضارية عِلمية، وحتى تكونَ مدعومةً من جهات عديدة دعمًا ماديًّا ومعنويًّا، وحينما يتحرك مشروع التعليم الخاص نحو الربحية فقط، ينتهي دوره بكل معنى الكلمة.

من هنا أقول: لابد من إعادة النظر، ولابد لكل هادفٍ صالحٍ يرجو لأمته الخير أن يدرك هذه الرسالة، ولابد أن تحصل تشارُكية جادّة بين التعليم الرسميّ والتعليم الخاصّ، هذه التشاركية التي تنطلق إلى البناء.

المحصول الزراعي سيكون حصادُه فاسدًا حينما لا تكون البذور جيدة ومستعدة للنمو، وحينما لا تكون التربة التي يُلقى فيها ذلك البذار تربة صالحة للغرس وصالحة للزرع.

البناء الخُلُقيّ السليم يبدأ من الطفولة، وحينما نعي أننا قد فرَّطنا بالأجيال تفريطًا كبيرًا، نستأنف بعد ذلك دورنا الثقافيّ والحضاريّ والتعليميّ على أعلى درجات الجدّية الهادفة المُنتِجة الواعدة.

وحين يمارس التعليم الخاصّ والرسميّ بناء الأخلاق، ويشعر بالمسؤولية، عند ذلك نكون قد خطونا خطوة ثانية.

٣- الخطوة الثالثة الإنقاذية هي الاهتمام بالناشئة في بيئة مساجدنا: فمساجدنا اليوم تفتح أبوابها للأطفال، ويتعلّمون فيها كتاب الله، وهي بيئةٌ طاهرةٌ خيّرة يدخل الطفل إليها، لكن علينا أن نوظّف ونستثمر استثمارًا صحيحًا دخولَ الأطفال إلى مساجدنا، وذلك حينما نزوّدهم بالمعرفة الصحيحة المُستمَدّة من القرآن، وحينما نزوّدهم بالأسلوب الذي يتناسب مع العصر، وحينما نستخدم في مساجدنا الوسائل، ونُدخِل عنصر التشويق، ويكون أصحاب التربية معنيّين بهذا التشويق، ومُحبِّبين لا منفرين، والنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يقول: (بَشِّرُوا وَلا تُنَفِّرُوا).

هذا على المستوى العام.

والطفولة عالَمٌ جماليٌّ مفعَمٌ بالحُسن والبراءة، ومن باب أَولى أن يكون أهل التوجيه على مستوى البِشارة التي تستوعب هذا العالَم المفعم بالبراءة والطهارة، عَالم الطفولة.

الخطوة الرابعة، وأنا أقول هذا لكل من يرجو لأمتنا خيرًا ويرجو إنقاذًا:

٤- آن لنا أن نعتبر أن الدعوة الإيمانية التي تصل الإنسان بحقيقة الإيمان بالله سبحانه وتعالى وباليوم الآخر، التي هي حقيقة ثابتة بالنقل والعقل، لا يستطيع العقلاءُ تجاوزَها:

قال تعالى: { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ }

[المؤمنون: ١١٥-١١٦].

لا يمكن أن يتجاوز العقلاء هذه الحقيقة، ولا يمكن لنا أن نتغلّب على الفساد الخُلقي وأن نتجاوز هذه الحقيقة الإيمانية.

ينبغي أن تكون الدعوة إلى الإيمان ضرورةً اجتماعية حاضرة، فلا يمكن أن نتوقع الأمان في مجتمعٍ ليس فيه الإيمان، فمهما كانت القوانين صارمة، ومهما كانت مُسدَّدة، ومهما كان أصحاب القانون على مستوى التفاعل مع القانون - فيما لو كانوا على مستوى التفاعل مع القانون، بعيدًا عن الالتواء حول القانون - ومهما كان هذا الواقع حاضرًا، فإن المجتمع لن يصلح إلاّ بوجود الإيمان، لأن الإيمان يُهيمن على النفس، وعندها يستطيع الإنسان من خلال هذا الوازِع الإيمانيّ الذاتيّ أن يكون الأبعد عن الجريمة، والأبعد عن الانحراف، والأبعد عن الفساد.

ولا يمكن أن تكون هذه الدعوة الإيمانية حاضرة في المجتمع ما لم يَكثر في المجتمع المؤمنون والمؤمنات من الدُعاة، الذين يتفاعلون مع حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر تفاعلاً جادًّا، وتفاعلاً شعوريًّا لا تفاعلاً تمتزج البلاغة والفصاحة فيه بالتملّق والتشدُّق والتكلُّف.

٥ - ينبغي على الدُّعاة الجادّين والصادقين أن يركِّزوا في هذه المرحلة على التربية الخُلُقية، وألاّ يصرفوا طاقتهم في نـــزاعات هامشية: وهذا في اعتقادي ضرورةٌ حاضرة في الوقت، فقد تكون هذه النـــزاعات سياسية، وقد تكون هذه النـــزاعات فكرية، وقد تتعلق هذه النـــزاعات بالأسلوب والأداء... فعلى جميع الدعاة الصادقين الذين يرغبون في إنقاذ المجتمع من هذا الانحدار الخُلُقي، أن يُركِّزوا كل اهتمامهم على التربية الخُلُقية، فهي أولوية حاضرة في هذا الوقت، وهي أولوية مرحلية لابد لكل جادّ صادق أن يكون مستوعِبًا لها.

٦ - علينا أن نعي دور الإعلام، وأن نفهم التخصص المطلوب فيه، وأن نوظِّف هذا التخصص:

لقد أصبح الإعلام تخصصًا مستقِلاًّ، وأصبح وظيفةً من الوظائف الكبرى التي تعتني الدعوة بها، ونحن نعيش فوضى الإعلام، ونعيش إهمال شبابنا للتخصص بالإعلام.

التخصصات الدقيقة تتوجّه إلى ميادين معروفة ومكررة، لكن هناك تخصصات كثيرة نحن بحاجة ماسّة إليها، كالتخصصات الإعلامية الحديثة المتطورة التي لا يمكن لنا أن نـــزاحم في مستواها حتى نمتلك أعلى درجات التخصص.

متى نَعي أن إرسال شابٍّ ليتخصص تخصصًا عاليًا في أكاديمية إعلامية مثلاً، لا يَنقُص عن إنفاقٍ ينفقه هذا الثريُّ من أجل إطعام جائع؟

متى ترتفع السوية الثقافية فنعي أن الإنفاق المالي الذي يعتني بمثل هذا الدور، لا يَنقُص في أجره عند الله سبحانه وتعالى من تبنّي مجموعة من الشباب يُرسَلون لدراسةٍ تخصصية يعودون بها بأداء اجتماعيٍّ متميّز؟

واليوم تأتي جمعية وتتحدّث بإطعام فقراء، وتتحدّث بكفالة أيتام... ويسارع الناس، لكنك لا تجد اليوم ثقافة الإصلاح على مستوى الإصلاح، ولا تجد في أثريائنا الثقافة التي من خلالها يرتفع المجتمع إلى نهضة حضارية حقيقية، لا على المستوى الفني، ولا على المستوى العِلمي، ولا على المستوى الإعلامي...

والإعلام المتخصص التربويّ الخُلُقي ينبغي أن يوجَّه إلى مستويات أربعة، وحين نُهمل مستوى من هذه المستويات الأربعة سيبقى الفساد موجودًا، وهي: الأطفال – والشباب – والكبار - والمرأة.

فلابد من تخصص موجَّه وتوجيه للتخصص، ولابد أن نعلم أن الدور التربويّ الذي يُقدّمه الإعلام حينما نكون على مستواه، يمكن أن يضع بصمات، حتى لو أُنفقت ملايين الدولارات على الإعلام المُنحَلّ الإباحيّ، والإعلام الذي يُعلّم الشباب العُنف، ويُعلّم الشباب القتل، ويُعلّم الشباب الجريمة، ويُعلّم الشباب الانحراف، ويُعلّم الشباب الإباحية الجنسية...

متى يكون لدينا الارتقاء إلى مستوى الأداء، بحيث يكون إعلامُنا، الذي نصل إليه بجهد وتخطيط، قادرًا على استيعاب هذه المستويات الأربعة؟

٧- لابد أن ننشر نشرًا واعيًا ثقافة الزكاة: فمصارف الزكاة التي بيّنها القرآن الكريم تُغطّي حاجات المجتمع، وتصرف الإنسان عن الانحراف، ومهما تحدّثوا عن أزمات اقتصادية ومالية، لو وجدت ثقافة الزكاة بشكل صحيح فسوف تحل جميع تلك الأزمات، كما لو أُخرجت زكاة الأرض مثلاً.

واليوم هناك من ينشر بين الناس فتاوى لا صلة لها بالشرع، ويبتعد من خلال تلك الفتاوى عن إخراج زكاة الأرض، فلو أخرج تُجّار الأراضي زكاة أموالهم كلَّ سنة، سوف يُحدِث هذا تغييرًا على المستوى الاقتصادي، وسيكون الفقير الذي تعطيه الزكاة في السنة القادمة قادرًا على أن يُعطي الزكاة.

وهناك من يقول للناس اليوم: لا تُخرج زكاة الأرض، وأخرِجْها بعد عشر سنوات (عندما تبيعها) عن سنة واحدة.

وقد صَدّرتْ دائرة الفتوى في هذه المدينة الطيبة فتوى واضحة، أتمنى أن نقوم بنشرها وتبيين ما فيها، لأنها بيّنت للناس أن الأرض المُعدَّة للتجارة تَجِب الزكاة فيها كلَّ سنة.

هذا جانب من جوانب ثقافة الزكاة، ولو أن ثقافة الزكاة عُممت على المجتمع وفهمها الأثرياء، وفهم الإنسان أن العقوبة من الله سبحانه وتعالى عندما يمتنع الغني عن إخراج زكاة ماله، وأنه عندما لا يُخرج زكاة ماله فهو سبب من أسباب الانحراف، وهو سبب من أسباب السرقة، وهو سبب من أسباب الفساد... فلابد أن تكون كل هذه العوامل مجتمعة قادرة على زحزحة المجتمع عن فساده.

إذًا: لابد من نشر ثقافة الزكاة، ولابد من التبيين فيها، لا التبيين الفقهيّ فقط، إنما التبيين الفكريّ والحضاريّ أيضًا، كتبيين المآلات والنتائج، وحينما يشعر الإنسان الذي لا يُخرج زكاته أنه سبب من أسباب الانحراف، عندها لن يكون فقه الزكاة فقه عبادة فردية، إنما يكون عند ذلك سببَ تغيير اجتماعيّ عامّ.

٨- لابد من إنقاذ لمقاصد الشباب: واليوم بسبب تراكمية زمنية، أصبحنا نرى في ملاعب الكرة مئات الآلاف، وأصبحنا نرى الاهتمام بالألعاب الإلكترونية في الشبكة العنكبوتية أو الإنترنت، وأصبحنا نرى هَوَسَ الهاتف الجوال... لكن أين المكافآت التي يُعلَن عنها، والتي من خلالها تُقدّم الجوائز للشباب الذين يتفوقون في البحث العِلمي، ويتفوقون في الأداء الأدبي...

الله الله فيمن ليس له إلاَّ الله.

البحث العِلمي ليس له إلا الله..

الأداء الأدبي ليس له إلا الله..

أما الملاعب، وأما ثقافة الانجذاب إلى المرأة، وأما هَوَسُ الألعاب... فإنها حاضرة في الإعلام، وحاضرة في التسويق، وحاضرة في كل وسائل التشويق والعناية.

نحن لا نمانع في إنشاء مدن رياضية، لكن ألا ينبغي أن يكون في مقابل ذلك مدن ثقافية ومدن عِلمية؟

ألا ينبغي أن نحفِّز الشباب على المستوى الثقافيّ والعِلميّ والأدبيّ؟ أين المُحفِّزات؟

لو أننا نُعلن عن مسابقات عِلمية، سنرى كل الشباب تتوجّه مقاصدهم إلى عملٍ مُنتجٍ وفاعل.

هل نريد إنقاذ المجتمع أما أننا لا نريد؟ أم أننا الانحدار إلى الهاوية؟

إذًا: لابد من دورٍ رياديّ واعٍ يستوعب مقاصد الشباب، فمقاصد الشباب في خطر، ولا مُنقِذ ولا مُنجِد، بل لقد تسرّب فساد المقاصد إلى الأطفال والشباب الناشئين حتى في المساجد، لأن العدوى عندما تأتي لا تكون عدوى مُوضَّعة، إنما تنتشر وتدخل إلى بيتك ومسجدك ومدرستك وجامعتك...

هناك عدوى انحراف المقاصد عند الأطفال والشباب، وأصبحت الأحاديثُ التي تدور بين المراهقين أحاديثَ كان يخجل الكبار منها في الزمن الماضي.

إنه لمن الجيد أن يُشدَّد على ظاهرة تدخين الشباب والأطفال، فهي خطوة إيجابية، لكن هل يكفي هذا؟

هل يكفي أن يحاسب على التدخين لنحفظ صحة جسده، ثم بعد ذلك تنتشر العدوى الخُلُقية الفاسدة بين الشباب؟ أين توجيه المقاصد؟

أين التوجيه الذي يصرف الشباب عن العبثية إلى أداءٍ جادّ على مستوى العِلم والثقافة والأدب؟

واليوم تسأل طالبًا وصل إلى صفٍّ متقدّمٍ في المدرسة عن أبجديات الثقافة فلا يعرفها.

إذًا: لابد من إنقاذ، وهذا إذا لم تقم المدرسة به، فعلى المجتمع أن يقوم به.

علينا أن نسمع بالمكافآت، والمسابقات، وتشجيع المبدعين، وتشجيع المتميزين... وعند ذلك سترى غَلَيَان الشباب في المكتبات يبحثون عن المعلومة، وسترى غليان الشباب في المختبرات، بدلاً من أن يتركّز الغليان في الملاعب.

٩- لابد من إصلاح خُلُقيّ إداريّ وقضائيّ: فلابد من أن نتنبّه إلى أن الأجهزة التنفيذية هي في فساد خُلُقيّ.

تغلغل الفساد، ودخل في أوساطٍ كان من المُفترَض ألا يدخل الفساد إليها.

ألا يدخل الفساد إلى بعض أجهزة الشرطة؟

ألا ترى من يتلاعب بالقوانين في القضاء؟

ألا ترى من يتلاعب بالقانون ويجعله سبب ابتزاز؟

إذًا: نحن في أزمة على المستوى الخُلُقيّ الإداريّ، ولسنا في أزمة فقط على المستوى الشعبيّ، فلابد من استيعاب ذلك والاعتراف به ومعالجته.

ولن يكون هذا بمجرد القانون، بل لابد من الوازع الذي ينبعث من قلب الإنسان.

تقولون: هذه عودة إلى الأصولية؟

إذا كانت الأصوليةُ هي العودة إلى الأخلاق فما أحلاها!

أما إذا كانت تطرُّفًا وانحرافًا سلوكيًّا فقبّحها الله.

إذا كانت الأصولية أن نعود إلى أصولنا الخُلُقية، وأن نعود إلى أصولنا الإنسانية، وأن نعود إلى التعادل الإنساني... فهذا أمر مطلوب، وإلاَّ فإننا ننحدر إلى مستوى الأنعام أو أضل، كما قال سبحانه:

﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

الخطوة العاشرة والأخيرة، وأسأل الله أن تكون عشرة كاملة:

١٠- لابد من دعم الأثرياء لمشروع الإصلاح الخُلُقي: فحينما لا يكون المال حاضرًا في الرسالة وفي الهدف، هدفِ الإصلاح، وهدف العودة إلى مبادئنا، وإلى قيمنا، وإلى أخلاقنا... وحينما لا يدعم المال الرسالة والمبادئ ولا يكون خادمًا لها، سوف تتعثر هذه الرسالة.

إذًا: أعود وأُذكِّر بالعناوين، ولابد من ورقة عمل نستطيع من خلالها الإنقاذ، ونحن ننحدر انحدارًا خُلُقيًّا:

١- لابد من الاعتراف بأننا ننحدر.

٢- لابد من التشاركية الجادّة بين التعليم الرسميّ والتعليم الخاصّ في البناء الخُلُقيّ، وألا يكون هذا مجرّد مشروع رِبحي.

٣- أن نعطي أولويةً للاهتمام بالناشئة داخل مساجدنا، وأن نُركِّز على الجانب التربويّ الخُلُقيّ، مستخدمين كلّ ما نستطيع من الوسائل.

٤- الاهتمام بالدعوة الإيمانية التي تصل الإنسان بحقيقة الإيمان بالله سبحانه وباليوم الآخر.

٥- أن ينصرف الدعاة في هذه المرحلة عن كل النــزاعات بكل أنواعها، وأن يصرفوا الطاقة في هذه المرحلة إلى التربية الخُلُقية، فهي أولويتنا في هذه المرحلة.

٦- العناية والاهتمام بالإعلام التربويّ المتخصص، الذي يخاطب الأطفال والشباب والكبار والنساء.

٧- نشر ثقافة الزكاة التي تحقق للمجتمع الاكتفاء الذي يصرفه عن الانحراف.

٨- توجيه مقاصد الشباب (وقد انحرفت) إلى ما ينفع من العِلم والثقافة والأدب.

٩- الإصلاح الخُلُقيّ الإداريّ.

١٠- الدعم المادّيّ لمشروع الإصلاح.

هذه ورقة عمل، إن كُنّا جادّين نتعاون لتحقيقها، وإن بقينا في دور المتفرِّج فإني أظنّ أن المجتمع - لا قدّر الله - سينحدر انحدارًا بشعًا إلى هاوية لا نرجوها لأمتنا، ولا نرجوها لمجتمعنا.

رُدّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.